غياب دولة العقل ..

بقلم الدكتور قسطنطين زريق

يجوز لبنان والعالم العربي في هذه الفترة محنا قاسية ومآسي متلاحقة متماسكة لها نتائجها المصيرية الخطيرة . ولهذه المحن والمآسي عوامل خارجية وداخلية لا مجال هنا لبسطها او لمجرد تعدادها ، وانما اشير الى واحد من هذه العوامل أعتقد انه في مقدمتها من حيث شمول النطاق وبروز الاثر ، أعني به **غياب دولة العقل في مجتمعنا .**

ذلك ان للعقل دولة ، كما أن للسلطة السياسية او العسكرية دولة ، وللمال دولة ، وللقانون دولة ، الى غير هذه وتلك من الدول التي تميز الامم بعضها عن بعض ، وتحكم بعضها ببعض . ودولة العقل ، عندما تكون قائمة ، لا تنحصر في نظام أو جهاز من انظمة المجتمع وأجهزته ، وانما تنبث فيها جميعا : في الاسرة ، والمدرسة ، والحقل ، والمصنع ، والجيش ، والحكومة ، فتوليها خصائصها وتطبعها بطابعها .

دولة العقل كانت على مدى التاريخ ، وغدت في هذا العصر الفريد بخاصة ، مصدر القدرة ، ومبعث النفوذ ، ومنطلق التقدم . بالعقل يتسلط الانسان على الطبيعة فيرد عن نفسه غوائلها ، ويستخرج مواردها ويستنبط طاقاتها ، ويستغل هذه الموارد والطاقات لرفع مستوى عيشه ، وتعزيز قدرته ، وصيانة مجتمعه ، وتمكينه من الاستمرار والتصاعد في تحقيق قيم الحياة ومنجزات الحضارة . فدولة العقل هي دولة الابداع ، والانتاج ، والقدرة الحقيقية القائمة اخر الامر على الانتاج والابداع .

دولة العقل هي أيضا دولة الانتظام ، لان العقل هو في جوهره كيان منتظم يعرف امكاناته وحدوده ، ويضبط نوازعه ، ويحكم سبله واساليبه ، ويسبغ هذه القدرات على الافراد والمؤسسات والمجتمعات التي تهتدي بهديه وتستمد سلطتها من سلطته .

وهذه الدولة هي كذلك دولة التعاون والتضامن ، لان عقل الفرد ، مهما يكن جبارا ، يعي انه لا يكتسب وجوده وفاعليته الا بمساندة المولدات العقلية السابقة ، وبمعاونة العقول المولدة أينما كانت . والمجتمع التعاوني الصحيح هو ذلك الذي يسوده هذا الوعي متمثلا في ادراك شعبي مستنير ، وحكم منضبط متجرد ، وترابط بين الافراد والجماعات مبني على الولاء المشترك والتسامح والحوار والتبادل .

ودولة العقل هي دولة الحرية ، وبدون الحرية ، وهي الشرط الاول والخاصة البارزة للعمل العقلي ، لا تتولد قدرة ، ولا يتكون انتظام ، ولا يقوم تعاون أو تضامن .

ودولة العقل هي دولة الحرمة ، لان العقل يحترم ذاته ، واذا عاد الى نفسه وحاسبها ، لم يستح ولم يخجل ، كما تستحي بقية الدول وتخجل ، بل جابه وعالج بوحي الضمير ، فهو والضمير صنوان متلازمان ، ان لم نقل انهما شيء واحد . ودولة العقل ومتنجاتها ليست مصدر حرمة الذات واحترامها فحسب ، بل هي أيضا موئل احترام الغير ودعامة العزة الصامدة التي تضبط أطماع الطامعين وترد كيد الكائدين .

ودولة العقل هي أولا وأخيرا دولة القيم ، لان العقل يولد القيم ، ويمحصها ، ويرتبها في مراتبها ، ويصونها ، ويهب للدفاع عنها اذا انتهكت ، ويجعل قضيتها قضيته الاولى ومقصده الارفع . والمجتمع ـ أي مجتمع ـ هو ، في الجوهر والصميم ، قيمه : ما يدرك منها ، وما يقتني ويولد وينمي ، وما يجسد تعبيرا وفكرا وسلوكا وحياة فردية وجماعية .

ان الكلام عن دولة العقل يطول ، فلنكتف بهذا القدر الضئيل ، ولنحمل مصباحنا ، كما حمل ديو جنس مصباحه ، ولنفتش عنها في ما بيننا . ماذا نجد ؟ نجدها هزيلة ضئيلة الاثر ، ضائعة مضيعة ، غريبة مغربة ، غائبة عن حقول وجودنا ومجالات سعينا .

انها لم تصبح دولة بالمعنى الصحيح . ذلك أن العقل العربي لم يتنبه الا حديثا من الغفلة المديدة التي استسلم لها بعد قرون من الفعل والابداع والعطاء . وأمامه مشكلات قومية وانسانية تعجز عنها العقول المتطورة الجبارة ، فكيف بتلك التي لا تزال حديثة الظهور طرية العود . ولذا فان دولته الناشئة تحتاج ، لكي ترسخ وتزهو ، الى تعهد دائب ورعاية تفوق ما نتصور وتتعدى كثيرا ما نبذل وما نهيىء . انها تتطلب تبدلا جذريا في مقاييس قيمنا ، وفي صنوف اختياراتنا ، وفي سياساتنا العامة ومسالكنا الفردية . انها تقتضي موازنات حكومية تقام على غير الاسس التي نشهد ، موازنات تعطى الاولوية فيها لتنمية الانتاج ، وتوفير الابداع ، وتعزيز الفكر ، وتكثيف الفاعلية الحضارية . انها تستدعي انشاء هياكل للعلم رفيعة ، ومعاهد للبحث غنية ، ومنائر للفكر ساطعة ، ومنابت خصبة للنخبة الصالحة الرائدة من الرجال والنساء . انها تتطلب ، أول ما تتطلب ، وعيا للقوى المتفاعلة في هذا

العصر ، ورؤيا تمتد الى ابعد آفاق المستقبل ، وطموحا يثير القلق ليل نهار ويبعث كامن ألهمم ويدفع الى اعلى القمم .

وحبذا لو أن الامر اقتصر على ضآلة الوعي وقصور الرعاية وحقارة التعهد . ان دولة العقل ، على هزالها، معرضة كل يوم للانتهاك والتدنيس والتخريب . تشن عليها الهجمات المتتابعة من الخارج ، وتتفشى داخلها بذور الفساد والتفكك والضياع . ينتهكها الحاكم المستبد، والسياسي المتهافت ، والمالي المستغل ، وصاحب الزعامة الموروثة ، والمتعصب النافذ ، والحزبي الاعمى ، والغوغائي المثير لغرائز الجماهير المتلاعب بمصالحها ومصائرها . ان هؤلاء وأمثالهم حرب على دولة العقل عوان ، لان العقل يفضحهم ويكشف عجزهم وخداعهم ، ولان سلطتهم لا تدوم الا اذا تغلبت دول الجهل والتعصب والغريزة والتفرقة والضلال .

ولعل أشد ما يصيب دولة العقل من أخطار هو ما يعتريها من داخلها ، من الذين يدعون الانتماء اليها ، ولا يقدرون حرمتها وقداستها ، ويعجزون عن تأدية الثمن الغالي الذي تتطلبه جهدا ومجاهدة ، وتجردا واخلاصا ، ومحاسبة للنفس ، وادراكا للقيم ودفاعا يقظا عنها لحمايتها من غارات الغير ، ومن شهوات النفس وأهوائها ، وهي أفظع من تلك الغارات وأرهب . ان سلامة أي جسم أو نظام أو دولة تأتي أولا من المناعة الداخلية ، فاذا تبددت هذه المناعة بالاسترخاء والاستذلال والفساد ، هان الامر على العداة المتسخفين والغزاة العابثين .

ولعله من المفيد أن أتصدى بايجاز الى اعتراض شائع ، مآله ان بناء دولة العقل أمر بعيد ، وان أول ما نحتاج اليه في حالنا الحاضرة هو الثورة على الاوضاع الفاسدة والقضاء على عوامل التخلف والاستعباد والاستغلال ، وان للثورة طرقها وأساليبها ودولتها ، فبها يجب أن نؤمن واليها يجب أن نوجه طاقاتنا وجهودنا ، وكل دعوة أخرى دعوة خاطئة أو مفسدة تلهينا وتقصد اساءتنا . ان الذين يقولون هذا القول ينسون او يتناسون ان العقل المتنبه كان وما يزال هو الثائر المجلي ، يكافح الوهم والضلال ، يناضل الشر والطغيان ، وان كل ثورة سياسية او اقتصادية او اجتماعية قامت في التاريخ وحققت معنى الثورة الصحيح قد سبقتها او صاحبتها ثورة عقلية وصيحات مدوية من رجال الفكر والقلم ابانت وجوه الضلال او الاستعباد ودعت الناس الى ازالتها . ان العقلانية هي الثورة الاصيلة الصائنة المصونة ، واذا كانت ثمة عقلانية غير ثورية فهي عقلانية ناقصة هزيلة ، او كانت ثمة ثورية غير عقلانية فهي ثورية هائمة متبددة مبددة .

ومثل الحاجات الداخلية الاخطار الخارجية ، واشد هذه الاخطار علينا هو بلا جدال خطر الحركة الصهيونية العالميه وما تحلم به وما حققته من احتلال فلسطين واقامه دوله اسرائيل ، وما تزال تهيئه من غزو وتهجير واغتنام . ولئن استطاعت هذه الحركة ، على فساد مبداها ومخالفته لكل حق وقانون ، ان تفعل ما فعلت فبفضل ما جهزت من قدرات داخلية دقيقة وما جندت من قوى خارجيه ضخمه : كل ذلك بصنع وتدبير ، وانتظام وتخطيط ، واستباق للاحداث ، وتحكم بالمصائر والاقدار . كله بعمل عمول صانعة مدبرة منتظمة مخططه مستبقه متحكمه . عمول لا تقهر الا بمثلها او بما هو اقدر منها وادهى .

ولسنا نغالو اذا قلنا ان اخطر ما تخططه عقول الصهيونية ومن وراءها هو بالضبط اعاقة قيام دولة العقل عندنا وتعطيل قابليتنا الانتاجية وقدراتنا الفعلية وابقاؤنا غارقين في دياجير الوهم والجهل والتخلف ، ليسهل استغلالنا واستغلال مواردنا ولنظل رعاة غنم واصحاب دكاكين وخداما لغيرنا من المتجهزين باسباب القوة الصناعية والسلطة الانضباطية والعمل العقلي المبتكر والتقدم الحضاري الحثيث .

وهنا ايضا يقال : ان بناء دولة العقل هدف بعيد ، والطريق اليه مديد ، والعمل الآن في الميدان ، وسبيله التضحية والفداء . قلنا اعظم بالتضحية والفداء ، اعظم بالحياة تبذل بشجاعة وسخاء ، وبالجهاد المتحدي ، قتالا لاهبا او مقاومة صامتة . غير ان هذا الجهاد السني المعطاء ، كالثورة الاصيلة ، لا يتنافى وتحصيل القدرة التقنية والمهارة الفنية والتفكير المخطط والعمل المنتظم ، بل يتصل بالعقل المحصل لهذا كله ويفيد منه ويحتمي به ، ويتفاعل واياه تفاعلا ايجابيا مستمرا ليأتي كل منهما اغزر فعلا وابلغ اثرا واعمق نفاذا. ان جهاد الميدان يتقوى بمقدرات العقل ويتحصن ، وجهاد العقل يستمد من رسالة الميدان نبل التضحية وجلال الفداء وقداسة الشهادة .

ما اجدرنا جميعا ان نكون دعاة صادقين وجنودا مجندين وحماة صامدين لدولة العقل المرجوة . ما اجدر هذه المناسبة وامثالها ان تكون حافزا لكل منا الى الجهد الدائب والمحاسبة النفسية الدقيقة والتجهز المستمر للقيام بهذا الواجب الخطير الذي يتحدانا . فاذا فعلنا – وانا باذن الله فاعلون – أسهمنا بقسطنا في تمكين امتنا من التغلب على أزماتها ، وفي بنائها أمة قادرة على الثبوت والبقاء ، بل امة خليقة بالثبوت والبقاء ، بما تقدر عليه وما تقدمه من انجاز وتحقيق وعطاء .

وشكرا مؤكدا لكم جميعا .

قسطنطين زريق